## الفصل الرابع

# الأســـاطير
# Myths

### معنــى الأسـطـورة

احتلت الأسطورة مكانة ملحوظة عند الفلاسفة وعلماء النفس ومؤرخي الحضارة والأديان منذ القرن الثامن عشر، وقد اشتغل مفكرون من أمثال كلود ليفي شتراوس وأرنست كاسيرر وكارل غوستاف يونغ وفريدريك شلنغ ومرسيا إلياد وغيرهم في تفسير الأسطورة والتفكير الأسطوري بوصفهما من التمثلات المعرفية البدائية للإنسان. وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء قد بذل جهداً لكي يتوصل إلى تفسير عقلي للأساطير من خلال إزاحة العناصر الخيالية الكامنة فيها، وحاول بعضهم الآخر اكتشاف حقائق روحية ومثالية وأخلاقية إلى جانب الحقائق المادية في الأساطير وعمد آخرون إلى إسقاط تفسيراتهم المعاصرة عليها وإعطائها مضامين وأفكار لم تعبّر عنها الأساطير صراحة، فإن هناك نظرية من أكثر النظريات دواماً في تفسير الميثولوجيا، اعتبرت الأساطير ذات «وظيفة تعليلية» أي أنها اعتبرتها، تقريباً، لوناً من العلم البدائي الذي يفسِّر الأصول السببية لأحداث الطبيعة ونظم البشر. والقول إن هناك عناصر تعليلية في الميثولوجيا، قول لا يمكن إنكاره، غير أن ذلك لا يعني أن هذا هو التفسير الشامل الذي يستوعب هذه الظاهرة. ولقد رأت أحدث النظريات في تفسير الميثولوجيا أن الأساطير تعبِّر بطريقة رمزية عن حقائق خاصة بفكر الإنسان وحياته، كما أن التفسيرات السيكولوجية التي قدمها علم النفس قد لفتت الأنظار إلى التوازي القائم بين الأساطير والأحلام ورأت



obeikandl.com

فيها إسقاطات وتجسيدات للرغبات والصراعات الداخلية في الإنسان. أما التفسيرات الوجودية فقد رأت في الأساطير المحاولات الأولى التي تلمّس فيها الإنسان الطريق نحو العثور على هوية[1].

من البديهي القول إن اختلاف المفكرين في تفسير الأساطير يعود في جانب منه إلى اختلاف الزاوية التي كان ينظر منها إلى الأسطورة، ويعود في جانب آخر إلى الأسطورة نفسها بوصفها «ظاهرة معقدة» تنتمي إلى فترة من الثقافة البشرية لم تكن قد ظهرت فيها أشكال متخصصة أو متمايزة من اللغة. ولكننا إذا نظرنا إلى الأسطورة من زاوية كونها محاولة فكرية بذلها الإنسان في سياق بحثه عن هويته وعن تفسير معنى وجوده بالذات، فإننا سوف نصل بالضرورة إلى تفسير يرى الأسطورة مزيجاً من العقل والخيال تتوحّد فيه نظرة الإنسان إلى ذاته وإلى الطبيعة والعالم. فقد كان الإنسان في الأساطير الأولى يصارع بالفعل في سبيل توضيح الغموض الذي يكتنف وجوده، محاولاً أن يجد الإجابات عن المتناقضات الظاهرة في هذا الوجود. وهذه كلها محاولات حقبة ما قبل الفلسفة وما قبل الفينومينولوجيا (الظواهرية)، للتعبير في صورة ميثولوجية أسطورية عن وعي الإنسان بالوجود الذي لازمه منذ بداية وجوده[2].

وقد بدأ التفكير الأسطوري يبرز لحظة ازدياد الحدة في العلاقة بين الإنسان وذاته، وبينه وبين الطبيعة، وبالتالي فهو رد فعل ذهني تلقائي على كافة التساؤلات التي يثيرها الوجود الإنساني، مثل معاني الحزن والفرح والخطيئة والحياة والموت... ومحاولة أولية لتعقل المثيرات الحسية الناتجة عن تفاعل الإنسان مع محيطه الاجتماعي عامة والطبيعي خاصة. فالأسطورة انعكاس فكري لما تحتويه العلاقات الاجتماعية من أشكال التعبير السحرية أو الطقوسية، وفي الوقت نفسه، توجيه عقلي لهذه الأشكال يخدم الإنسان من خلال تأمين منطلقات ذهنية تساعده في مواجهة الطبيعة بأسرارها وظواهرها، وفي تحقيق التوازن حيال الواقع المحيط

---

[1] د. علي الشامي: الفلسفة والإنسان (جدلية العلاقة بين الفكر والوجود)، دار الإنسانية - بيروت، ط1، 1991، ص33.

[2] المرجع نفسه، ص 34.

برهبته وغموضه، وفي تنظيم علاقاته مع الآخرين، وأهم من كل هذا وقبل كل شيء سبر أغوار ذاته للتوصل إلى إجابة ضاغطة عن السؤال المتعلق بالمصير، فهي تأسيس لمسار نوعي بدأه الفكر الإنساني وهو في سياق بحثه عن إجابات مقنعة لكافة الأسئلة التي أحاطت بوجوده بصورة شاملة[1].

فالأسطورة بدأت في بناء علاقة الفكر بالوجود عندما انتصب الإنسان على قائمتين، رفع رأسه إلى السماء، ورأى نجومها وحركة كواكبها، وأدار رأسه فيما حوله فرأى الأرض وتضاريسها ونباتها وحيوانها. أرعبته الصواعق، وخلبت لبه الرعود والبروق، داهمته الأعاصير والزلازل والبراكين، ولاحقته الضواري. رأى الموت وعاين الحياة. حيرته الأحلام ولم يميزها تماماً عن الواقع. ألغاز في الخارج وأخرى في داخله. غموض يحيط به أينما توجه وكيفما أسند رأسه للنوم. تعلّم استخدام اليدين وصنع الأدوات، وفي لحظات الأمن وزوال الخوف، كان لدى العقل متسع للتأمل في ذلك كله. لماذا نعيش؟ ولماذا نموت؟ لماذا خلق الكون وكيف؟ من أين تأتي الأمراض؟... كان العقل صفحة بيضاء لم ينقش عليها شيء، عضلة لم تألف الحركة خارج نطاق الغريزة، وبعد حدود رد الفعل ومن أداته المتواضعة هذه، كان عليه أن يبدأ مغامرة كبرى مع الكون، وقفزة أولى نحو المعرفة فكانت الأسطورة. وعندما يئس الإنسان تماماً من السحر، كانت الأسطورة كل شيء له. كانت تأملاته وحكمته، منطقه وأسلوبه في المعرفة، أداته الأسبق، في التفسير والتعليل، أدبه وشعره وفنه، شرعته وعرفه وقانونه، انعكاساً خارجياً لحقائقه النفسية الداخلية.

فالأسطورة نظام فكري متكامل، استوعب قلق الإنسان الوجودي، وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه، والأحاجي التي يتحداه بها التنظيم الكوني المحكم الذي يتحرك ضمنه. إنها إيجاد النظام حيث لا نظام، وطرح الجواب على ملحاح السؤال ورسم لوحة متكاملة للوجود، لنجد مكاننا فيه ودورنا في إيقاعات الطبيعة. إنها الأداة التي تزودنا بمرشد ودليل في الحياة ومعيار أخلاقي في السلوك، إنها مجمع الحياة الفكرية والروحية للإنسان القديم[2].

---

[1] د. علي الشامي: المرجع السابق، ص 35.

[2] فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دار علاء الدين - دمشق 1996. ص 18- 19.

إن كل الثقافات الإنسانية فيما يبدو تتشارك في خوفها من المجهول، وهي في محاولتها تفسير الغموض المرتبط بنشأة الكون والخليقة وكيف تطورت إلى أوضاعها الحالية لجأت على الخيال فتولدت الأسطورة. ويذهب ليفي ستروس *Lévi Strauss* إلى أن الأساطير نماذج على درجة عالية من التجريد تخضع لتفسيرات مختلفة، وأن الأسطورة لديها منطقها الخاص والذي قد يبتعد عن العالم الواقعي.

ومن ثم نجد أن كل ثقافة لديها مجموعة من الأساطير المحددة التي تدور حول الأصل والقوى الخارقة وعلاقات الناس بها، وقد تلقي الضوء على أسلافهم وتوضح كيف انفصلوا عن بقية المملكة الحيوانية، ومن ثم تعطي التفسيرات لتطورهم البيولوجي والاجتماعي[1].

وعادة ما تنتقل الأسطورة شفاهة من جيل إلى جيل عن طريق التلقين، حيث يقوم كبار السن بنقل هذه الأبنية الأسطورية في نقلات مختلفة إلى الأجيال التالية، وقد كشفت المادة الأثنوغرافية أن الأسطورة تلعب دوراً مهماً في حياة الأفراد، حقاً من النادر أن تكون وقائع الأسطورة وأحداثها ملزمة إلى حدّ كبير إلا أنها بلا شك تؤثر في سلوك الناس وأساليبهم. يقول إيفانز بريتشارد إننا لكي نفهم الدين البدائي لا بد أن نبحث في شعائره وأن ثمة صلة وثيقة بين الشعائر والأساطير، وأن تلك الأخيرة تشرح لنا هذه الشعائر وتفسرها.

ويرى «روبرتسون سميث» *R.Smith* أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين الأساطير والطقوس، وإن كان يعتقد أنها (أي الأساطير) لم تكن تمثل جانباً رئيسياً في الديانات القديمة، إذ لم يكن الإيمان بها إجبارياً وكجزء من الإيمان الحقيقي.

ويقول «رادكليف براون» *A. Radcliffe-Brown* في كتابه عن جزر الأندمان إن البدائي يسعى إلى الحقيقة وإلى تفسير تصرفاته مدفوعاً بما يحيط به من ظواهر الكون، وطبيعي أن الأسباب التي يصل إليها لا تطابق الدوافع السيكولوجية الفعلية للأفعال التي يريد تفسيرها... لذلك يجب أن ينطوي كل بحث وشرح للعادات الوطنية على تفسير للأسباب التي يقدمونها كمبرر لاتباعهم هذه العادة، وتلك القصص التي تبدو لأول وهلة خرافة هي في الحقيقة الوسائل التي يعبّر بها هؤلاء

---

[1] David E. and Philip Whitten Hunter, The Study of Cultural Anthropology, p.50.

البدائيون عن اتجاهاتهم الأساسية في الحياة وطبيعة عواطفهم المرتبطة بتلك الاتجاهات، ويذهب *W. Ward* إلى أن الدين الذي نشأ نتيجة الرغبة القوية في التقرب من القوة التي تتمثل في الكون وأن الاتجاه الميثولوجي بما يضعه من تفسيرات وما يقدم من تصور لطبيعة الآلهة أو القوى الأخرى قد يساعد الإنسان على الاحتفاظ بعلاقته بهم على أسس سليمة.

وأياً كان الأمر فإن الأساطير وجدت لدى الشعوب والجماعات كنوع من التراث الثقافي والاجتماعي، ومن ثم فإن لكل قبيلة أساطيرها الخاصة بها والتي قد تختلف باختلاف العشائر وداخل النطاق القبلي، وقد تبدو الأسطورة متشابهة إلا أن كل عشيرة أو قبيلة فرعية ترددها على نحو مغاير يعبّر بطريقة أو أخرى عن ماضي الأجداد والأسلاف أو الآلهة والخلق والقوى الخارقة للطبيعة فضلاً عن تمجيد الأبطال.

والجدير بالذكر أن لهذه الأساطير جانبها الأخلاقي والذي يستهدف أن يوضح كيف أن أنواعاً معينة من السلوك الاجتماعي يعتبر سامياً أو يكون متدنياً لدرجة يستحق الجزاء، وهي في الحقيقة لا تلزم الناس باتباع سلوك محدد إلا أنها دون شك تؤثر في سلوكهم وفي تقديراتهم كما سوف نرى حين نعود للجانب الأسطوري الذي أتاحته المادة الأثنوغرافية التي جمعها الدكتور فاروق إسماعيل من منطقة «كورنجو» *Korongo* مثلاً أو في جبال «تلشي» *Tullishi*، بل إن استعراض التراث الأسطوري لدى كثير من الشعوب سوف يوضح لنا أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين الأساطير والممارسات الدينية، ولعل هذا هو الذي دفع «إيفانز بريتشارد» *Evans-Pritchard*، على نحو ما أشرنا منذ قليل، إلى الربط بين الأسطورة والشعيرة على اعتبار أن تلك الأخيرة تعمل دوماً على تأكيد الارتباط بالسلوك الإنساني ومقدساته وقد توضح من ناحية أخرى إلى حد ما مبررات هذا السلوك. وعلى حد تعبير جان رد هاردت أن الشعيرة ما هي إلا تمثيل للحدث الأسطوري أو على الأقل محاولة لاستحضاره أو استنباطه، ولن نستطيع هنا أن نعرض للعديد من الأساطير، وإنما سنكتفي بإشارات أسطورية قدمتها المادة الأثنوغرافية حتى نستطيع أن نعرض لخصائص الأسطورة ومقوماتها على نحو ما سوف نستنتجه من هذه القصص أو النقلات الأسطورية إن صحت هذه التسمية.

يذهب «هوبير ديشان» *Hubert Deschamps* في كتابه «الديانات في إفريقيا السوداء» وفي عرضه لفكرة الكون عند قبائل «البامبارا» *Bambara* أن الكون في البداية كان فراغاً يتحرك بحركة ذاتية حول محورين حلزونيين يدوران في اتجاهين مختلفين فانطلقت من بنيها قوة هائلة «زو zo» نشأ منها العقل «يو yo» فلما دار الجهاز في الجهات الأربع تكونت عنه عوامل أربعة، فالعالم الحاضر هو الثالث، والرابع هو المستقبل. وعلى ذلك تكون حركة الذبذبة هي سبب نشأة العالم، ثم يتبع ذلك نشأة المخلوقات، ثم يلي ذلك سقوط مادة ثقيلة في ذلك الفراغ فتولدت الأرض وفي الوقت نفسه تقدم جانب من العقل «فارو *faro*» وأخذ يعلو فخلق السماء، ثم تهبط هذه القوة من جديد على الأرض على هيئة المطر لتمدها بالحياة فيظهر العشب، ثم العقرب، ثم السمك، ثم التمساح وحيوانات أخرى مائية، وكان الإنسان نفسه في بدء الأمر حيواناً مائياً خرج من الماء ولذلك زعم البامبارا أن الصيادين (بورو) هم المخلوقات الأولى.

أما قبائل «الدوجون» *Dogon* الإفريقية فيزعمون أن الإله *Amma* خلق النجوم بأن قذف في الفضاء كرات من الطين، وخلق الشمس والقمر بأن سوَّى كرتين بيضويتين أحاط إحداهما بدائرة من النحاس الأصفر والأخرى بدائرة من النحاس الأبيض، وأن الجنس الأسود ولد في الشمس والجنس الأبيض ولد تحت القمر، ثم ألقى كرة أخرى من الطين ودحا فيها الأرض وبسطها من الشمال إلى الجنوب في صورة أنثى، ثم اقترن بها فولدت «ابن آوى» ثم ولدت له عدداً من الجن *Nommo* فرأى أحدهم أمه عارية فكساها كساءً من لحاء الشجر، غير أن ابن آوى لما رآها عارية اغتصبها فسال منها دم الطمث وهكذا ارتكبت الخطيئة الأولى وهي الاقتران بالمحارم[1].

ويقدم لنا تايلور مجموعة من الأساطير تدور حول المجموعة الكونية الكبرى، والتي تشمل الشمس والقمر والنجوم، فقد كانت الشمس والقمر يعتبران دائماً كائنين من الأحياء، بل كثيراً ما كان الناس يتصورون أن لهما طبيعة أقرب

---

[1] هوبير ديشان: الديانات في إفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، مراجعة محمد عبد الله دراز، دار الكتاب المصري، ص 60 وما بعدها.

إلى الطبيعة البشرية ذاتها. ومعظم الشعوب القديمة والشعوب البدائية كانت تقابل بين الشمس والقمر من ناحية، والذكر والأنثى من ناحية أخرى، وإن كانت تختلف على أي الكوكبين هو الذكر وأيهما له خصائص الأنثى ودورها، كما كان هناك خلاف على طبيعة العلاقة بينهما. فبعض المجتمعات تتصور العلاقة بينهما هي علاقة زوج وزوجته، بينما يتصورها البعض الآخر علاقة أخ وأخت. فقبائل «الموبوكوبي» *Mobocobi* الذين يسكنون أمريكا الجنوبية مثلاً يعتقدون أن القمر هو الزوج والشمس زوجته، وتذكر لنا الأسطورة كيف أن الزوجة (الشمس) وقعت ذات مرة من مكانها فأسرع إليها أحد الهنود الحمر فأشعل فيها ناراً هائلة أتت على معظمها.

وعند قبائل الجونكويان أسطورة تقول إن الشمس هي الزوج والقمر هو الزوجة وأنهما أنجبا ابناً يتبادلان تربيته ورعايته، وحين يحتضن الأب (الشمس) ذلك الابن تحتجب الشمس عنا، بينما يحدث خسوف القمر حين تحتضن الأم (القمر) ابنها. ويعتقد بعض الهنود الحمر في كندا أن الشمس والقمر أخوان، وعندهم أسطورة عن اثنين من الهنود أمكنهما القفز إلى السماء فوجدا نفسيهما في أرض لطيفة يضيئها القمر بنوره الفضي الجميل، ثم لم يلبث أن أقبل عليهما من وراء بعض التلال في شكل امرأة متقدمة في العمر ولكن ذات وجه أبيض لطيف، وتكلمت إليهما في رقة ولطف، ثم صحبتهما إلى أخيها (الشمس) الذي حملهما معه في رحلته اليومية، ثم أوصلهما أخيراً إلى أرض القبيلة وتركهما بعد أن ملأ نفسيهما سعادة وغبطة.

وعند قبائل «الإنكا» *Inca* التي تسكن بيرو أسطورة تقول إن الشمس والقمر كانا في الأصل أخوين (أخاً وأختاً)، ثم تزوجا وأصبحا زوجاً وزوجة ويرون في ذلك مبرراً كافياً وسبباً لنشأة عادة زواج الرجل من أخته التي تشيع عندهم. وتوجد إلى جانب ذلك أساطير أخرى عن العلاقة بين الشمس والقمر لا تصطبغ بهذه الصبغة الجنسية، وإن كانت تعكس لنا في وضوح المبدأ الحيوي والتشخيصات التي يكتسبها الكوكبان بسبب هذا المبدأ. فعند سكان المكسيك مثلاً أسطورة تقول إن الشمس في الأصل هي أحد الأبطال، فقد حدث أن الشمس القديمة تقدمت بها

السن واحترقت تماماً وتركت الدنيا في ظلام دامس، فتقدم هذا البطل وأوقد ناراً هائلة ألقى نفسه فيها فاحترق وانتقل إلى عالم تحت الأرض وهو يتلظى، ثم لم يلبث أن ظهر في اليوم التالي من الشرق في هيئة الشمس. وقد قفز من بعده في تلك النار بطل آخر يريد أن يصبح شمساً، ولكن النار كانت قد بدأت تخبو وتبرد ولذلك فإنه حين ظهر من الشرق كان ضوءه أضعف من ضوء البطل الأول بكثير وأصبح قمراً[1].

ونستطيع من هذه الأمثلة القليلة أن نرى بوضوح كيف أن الشمس والقمر يتمتعان بطبيعة أقرب إلى طبيعة الإنسان، بل إن بعض الأساطير كما هو الحال في الأسطورة الأخيرة من المكسيك ترى أن روح الإنسان تتقمص في كل من الشمس والقمر، وما يقال عن الشمس والقمر يقال عن النجوم وعن كل مظاهر الطبيعة. فالأرواح تتقمص الصخور والآبار ومساقط المياه والبراكين وشياطين الغاب وحوريات البحر والجنيات التي تتبدى للعيان أحياناً في ضوء القمر، والرعود والبروق والأمطار والرياح وما إليها، ويحشد لنا تايلور كثيراً من الأساطير التي تدور حول هذا المعنى[2].

فإذا ما تركنا أساطير الكون والشمس والقمر والنجوم لوجدنا أن ثمة أساطير أخرى تتناول بداية الخلق أو ظروف النشأة، بل إنها تذهب إلى إلقاء الضوء على التوزيع الإيكولوجي وطبيعة البناء الاجتماعي والخصائص الحيوية لسكان إقليم من الأقاليم كما نجد في الأسطورة التالية من أن الإله «موسلا» ***Musala*** في كارلنجا من جبال تلشي زرع منذ البدء نوعاً من النباتات (القرعة) على قمة جبل تلشي وعندما نضجت الثمرة انشقت من تلقاء نفسها وخرج منها رجل وامرأة هما أسلاف قبيلة تلشي، ومع مرور الوقت أصبح عندهم ذرية كبيرة، وما لبثت أن انقسمت ونشب النزاع فيما بنيهم (لا يعرف سبب هذا النزاع فيما يقول نادل) الأمر الذي ترتب عليه هجرة الرجل مع بعض أبنائه إلى الجهة الشرقية من الجبل، والمرأة مع البعض الآخر إلى الجزء الغربي، وتمضي الأسطورة فتذكر لنا أن الذين هاجروا

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، مرجع سابق، ص 39-40.

[2] د. أحمد أبو زيد: تايلور، دار المعارف - القاهرة 1959، ص 114 وما بعدها.

مع أبيهم كانوا أقوياء أعزاء كثيري العدد والعدة، أما الذين رحلوا مع أمهم كانوا قلة ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، ومنذ ذلك اليوم والحقد والكراهية والنفور يسود علاقاتهم مع بعضهم البعض وبالتالي يخشى كل فريق زيارة قصر الفريق الآخر خشية الاعتداء والعين الشريرة أو الممارسات السحرية.

إن هذه الأسطورة تلقي الضوء على التقسيم الثنائي لقبيلة تلشي وعلى طبيعة البناء الاجتماعي، بل وعلى الخصائص الحيوية لسكان هذا الإقليم، والتي يمكن إدراكها بسهولة، فالقسم الشرقي مأهول بالسكان ومن ثم إحساسهم بالعزوة والعصبية، في حين نجد أن القسم الغربي - أبناء المرأة - قليل العدد والحيلة، ضعفاء ومستسلمين، وعلى الرغم من الوحدة الجغرافية للإقليم إلا أن الحدود المصطنعة أو الوهمية التي نسجتها الأسطورة قد صبغت سلوكهم وفرضت الكثير من القيود على تحركاتهم بين القسمين الشرقي والغربي خاصة فيما مضى، بل قد انعكس على عاداتهم ومشاركتهم الفعلية وتحركاتهم اليومية، إذ يتحتم على البعض فيما يذكر لنا «نادل» *Nadel* أن يختاروا دروباً معيّنة في تنقلاتهم (السير باتجاه عقارب الساعة) في حين يتحتم على الآخرين أن يسيروا في الاتجاه المضاد حول المنطقة المعروفة بجبل الموتى. كما ينعكس هذا التقسيم في طرق دفن الموتى، حيث يدفن الرجال ورؤوسهم باتجاه الشرق أي في اتجاه القسم الذي انصرف إليه الأب وتابعوه، في حين تدفن النساء باتجاه الغرب للسبب نفسه.

وعلى النقيض من ذلك فإن أسطورة «كورنجو» *Korongo* جنوب كردفان تذهب إلى القول بوجود مؤسس أسطوري، وأن الناس هناك يمثلون سلالة مؤسس القبيلة، وهم بذلك يقدمون لنا نقلة أسطورية تحمل في ثناياها الكثير من الحقائق التاريخية والرمزية، أو حتى مجرد حكايات قد يعتريها التحريف أو الاختلاف نجدها بشكل أو بآخر. وسوف نعرض هنا إحدى هذه النقلات للتعرف على مضمونها فالناس في منطقة كوجالا يرددون بين الحين والآخر (نقلة أسطورية) تفيد أن شخصاً كان يعيش قديماً بمفرده في هذه المنطقة يزرع اللوبيا والذرة وقد لاحظ أن شخصاً ما يأتي ويسرق بعض الزرع، وقد حاول جاهداً معرفة السارق دون جدوى، وقرر يوماً أن يختفي وراء التل لمعرفة الفاعل، ولكن ما لبث أن رأى ثلاث فتيات،

وجرى خلفهن، فأسرعت الفتيات إلى بركة ماء واختفين، وتمضي الأسطورة فتقول إن الرجل ظل يبكي فخرجت من البركة امرأة أخرى طاعنة في السن وسألته عن سبب بكائه والحزن الذي يعتريه فأجابها بأنه يريد الزواج من إحدى الفتيات اللاتي اختفين في البركة، فوافقت على أن يتزوج واحدة، ومنها أنجب أبناء (كوجالا)، بل سمى الأبناء (كوجالا مينه) وتعني أبناء المرأة التي خرجت من الماء.

وبعد وقت قصير أنجب الرجل طفلة، ومن ثم أصبحوا ثلاثة. وكانت الطفلة تنفرد بالمعيشة في مسكن خاص ومع مرور الوقت اكتشفت الأم أن طفلتها لا تعيش بمفردها، بل إن هناك طفلة أخرى تنام معها ليلاً، احتارت الأم وأمسكت بالطفلة وسألتها من أين جاءت؟ فأشارت الطفلة أنها جاءت من هنا، مشيرة إلى أرض الحجرة، وكبرت الطفلتان وتزوجتا وسمي نسلهما «كوجالو مابكولو» إشارة إلى الماء والأرض. وكما نرى فإن الانتماء القبلي لديهم واضح إلى حد بعيد سواء استخدموا الاسم القبلي «كاسنجالي» للإشارة إلى الفروع القبلية، أو البدنات مثل: كفارة أو كجندي أو كاسوللي أو منطقة الإقامة[1].

وقد تضفي الأسطورة نوعاً من القداسة على الأسلاف أو الزعماء الروحيين وتصبغ وجودهم بنوع من المعجزات كما نجد في تلك النقلة الأسطورية لدى قبائل النيمانج. وتدور أسطورتهم حول «كافنج» ***Kafing*** و«ولا» ***Wula***. أما الأول فروحه - أو قوته السحرية بتعبير أدق - مسؤولة عن الزرع وتتحدث عن طريق وسيطها كجور أمينة دردمة في قرية سلارا. فاجأ أمه المخاض وهي في الغابة تجني من الأشجار بعض الثمار في وقت مجاعة طاحنة، فكانت ولادته. واكتشفت أنها لا يمكن أن تحمل مولودها وما جمعته من ثمار في آن واحد فالحمل ثقيل والمسافة للقرية بعيدة فقررت أن تترك ابنها هنا- تستمر الأسطورة- نزلت الصقور وبدلاً من أن تقضي عليه حجبت عنه ألسنة الشمس الحارة بأجنحتها وروحت عنه، ثم أتى القنفذ وسحبه داخل الشوك حيث أرضعه إلى أن كبر وتوجه إلى قريته فلم يعرفه الناس فحدثهم بهويته. أما «ولا» ***Wula***- سلف صانع المطر- فلم تلده أمه كما تلد النساء، وإنما جاء مندفعاً من داخل ركبتيها بعد أن مسحتها بالزيت كما طلب منها وهو

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، ص 42-43.

داخل رحمها وقد اكتملت رجولته في أربع أسابيع فقط تماماً كرفيقه «شلما» *Shilma* أهم سلف في جبل نتل[1].

وكما سبق الإشارة فإن الأسطورة قد يكون لها جانبها الأخلاقي الذي يستهدف إيضاح كيف أن أنواعاً معينة من السلوك تعتبر سامية، وأنواع أخرى متدنية لدرجة تستحق الجزاء، كما نجد لدى سكان أستراليا الأصليين وعلى وجه التحديد قبائل *Kurnai*، والتي تحتم أن يجتاز صغار السن من الشباب شعائر التكريس القاسية حتى يمكن اعتبارهم في عداد الرجال، وتستمر هذه الطقوس نحو ثلاثة أسابيع، حيث يعزل هؤلاء الشبان في سياج من النخيل وتقام الطقوس التي تستهدف استدعاء طائر *Emu-wren* (رمز للطوطم وهو طائر أسترالي صغير الحجم أشبه بالنعامة إلى حد كبير). طوطم القبيلة وأحد أسلافهم المميّزين ويمتنع الشبان عن الحديث وقد غطوا رؤوسهم طوال فترة التكريس ويسمح لهم بإحداث نوع من الثرثرة كتلك التي يحدثها طائر *Emu-wren*، ويستمر الرقص الشعائري والذي يشارك فيه النساء والرجال حتى يقع هؤلاء الشبان في إغماءة، وعندما يستيقظون منها لا تلبث أن تحل بهم روحاً جديدة وتحدث المعجزة حين يظهر الطائر المقدس وعادة ما يحضر المبشرون يتوسطهم زعيم القبيلة. هنا ترفع أغطية الرؤوس وقد صوبت الرماح إلى صدورهم مهددين إياهم بالقتل إن أباحوا السر المقدس إلى النساء أو أولئك الذين لم يكرسوا بعد، ثم لا يلبث أن يتلو الزعيم الأسطورة التي تشير إلى سلفهم وانحدارهم عن الطوطم، ويغرس فيهم قواعد وأحكام سلوكية، فالصغار يجب عليهم طاعة الوالدين، وأن يتعاونوا مع الآخرين لخير مجتمعهم، وأن يبتعدوا عن الصغيرات من الفتيات، وأن يتزوجوا، وأن يتجنبوا عدد من الأطعمة المحرمة[2].

بعد عرض هذه النقلات الأسطورية من أجزاء متباينة من العالم، يجدر بنا أن نعرض في إيجاز للملامح أو الخصائص المميّزة لهذه النقلات أو الروايات الأسطورية:

أولاً- إن الأسطورة ظاهرة عامة توجد لدى جميع شعوب العالم على اختلاف مراحلها، وإذا كان بعض الباحثين يذهبون إلى أن ظهور الأسطورة قد صاحب نشأة

---

(1) أحمد عبد الرحيم: (أسلاف النيمانج)، مجلة الخرطوم، عام 1977، ص 43.

(2) أحمد أبو زيد: تايلور، مرجع سابق، ص 127 وما بعدها.

المجتمعات التاريخية، أو ارتبط بالمجتمعات البدائية التقليدية، إلا أنه يمكن القول إن كل المجتمعات أياً كانت حضاراتها ما زالت تحتفظ ببعض الرواسب الثقافية الأسطورية وتناقلتها بصورة أو أخرى كنوع من التراث.

ثانياً- تتنوع الأسطورة وتختلف فهناك أساطير الآلهة والكائنات المقدسة وأساطير خلق الإنسان، كما رأينا عند الدوجون والبامبارا، وأساطير الأجرام السماوية، كما وجدنا في أساطير الموبوكوبي والإنكا في أمريكا الجنوبية، وأساطير تلقي الضوء على الخصائص الحيوية للسكان، كما وجدنا في جبال تلشي بالسودان.

ثالثاً- الأسطورة تقدم لنا نموذجاً أو تصوراً أسطورياً لنمط العلاقات بين الأفراد والجماعات، إنها تحدد القيمة أو الشيء المرغوب أو غير المرغوب. إذ إن هناك ثمة اعتقاد عند الإنسان البدائي، على حد تعبير تايلور، أن الأرواح تتقمص كل الكائنات، وأن فاعليتها هي التي جعلته يعتقد أن هذه الكائنات قادرة على السلوك مثلما يسلك الإنسان. ومن هنا جاءت الأسطورة لتمثل عقيدة أصحابها وقيمهم ومثلهم ومناهجهم عن الخير والشر فضلاً عن نظرتهم للكون.

رابعاً- اختلاف النقلات الأسطورية مرده إلى العقل البشري - فالخيال الإنساني على مرّ الزمن أضاف إليها أو حذف منها أو حورها وأدخل عليها التعديلات من حين لآخر، ومن ثم كان هذا التباين والاختلاف. وإن أصبحت بعيدة عن الواقع فإن ثمة علاقة وثيقة بينها وبينه.

خامساً- الأسطورة ترتبط بمحاولة الإنسان البدائي فهم الكون وما يحيط به من قوى خفية مسيطرة، ومن ثم جاءت الأسطورة كمحاولة لفهم ما يكتنف العالم المحيط به من غموض، ومن ثم تناولت الآلهة والقوى الخفية (ما وراء الطبيعة) والنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد والجن.

سادساً- تتشابه الأساطير ولعل هذا ما دفع «تايلور» إلى الحديث عما أسماه المماثلة الكامنة في الأساطير. فسكان جزر البحر الجنوبي يتصورون قوس قزح على أنه سلم يوصلهم على السماء ويصعد عليه الأبطال، مثل هذه المفاهيم نجدها لدى سكان إسكندينافيا حيث يصورون قوس قزح على أنه الجسر الذي تعبر عليه أرواح

الطيبين من البشر حيث تحملهم الملائكة الحارسة إلى السماء وإلى الجنة. يسمي الإسرائيليون قوس قزح «يهوه» *Jehovah*، والهندوس قوس راما، والفنلديون سيف تيميرس، ولدى سكان «كورنجو» في جنوب كردفان يرى البعض أن قوس قزح إنما يمثل أبناء الإله موسلا.

في هذه التصورات الأسطورية نجد محاولة العقل ليجيب في نهاية المطاف على تساؤلاته أو يقدم تفسيراً قد يكون من وجهة نظره مقنعاً.

سابعاً- مهما تكن عمومية الأساطير في منطقة ثقافية واحدة فإن للأسطورة دلالتها المتمايزة المتفردة، إذ نجد أن كثيراً من روايات الخلق في العالم تجعل الماء مصدراً للوجود كما رأينا في أسطورة كورنجو، والتي ذهبت إلى أن الماء تتولد منه المخلوقات «كوجالا مينه» في حين نجد أن الماء يمكن أن يكون شيئاً مقدساً فحسب في نقلات أسطورية أخرى.

وبعد فإن البناء الأسطوري ما زال يحتاج إلى العديد من الجهود العلمية للبحث عن الأسطورة نشأتها ووظيفتها الرمزية، وقد تحتاج في كثير من الأحيان وعلى الأخص فيما يتعلق بأساطير النشأة وخلق الإنسان أو الأسلاف إلى الاستعانة بالمنهج الجينالوجي فقد نجد أن ثمة رابطة بين خلق الإنسان وأنساب الآلهة[*]، أو بين الأسلاف والآلهة أو الأرواح المقدسة[1].

---

[*] كما نجد في الأساطير التي تشير إلى أن الإنسان كغيره من المخلوقات ينتمي إلى الروح الإلهي أي أن ثمة علاقة وثيقة بين الإنسان وأصوله الإلهية.

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، مرجع سابق، ص 47-48.